مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 18 عدد: 01 أوت 2022
العنوان: خلفيات الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر ص.ص 823- 837.

خلفيات الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر

وليد صفراوي
جامعة تلمسان (الجزائر)، مخبر توثيق الشعر الشعبي الجزائري
walid.sefraoui@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2020/11/13 ؛ تاريخ القبول: 2021/06/11

Backgrounds Of French Settlement Phenomenon In Algeria

W.Sefraoui

Abstract:

In this scientific article, we are dealing with the french settlement phenomenon in Algeria, by defining its concept as a historical term by highlighting its true significance, as a western ideological fact with economic, social and cultural dimensions, its roots extend to the era of geographical statements, based on on racist foundations, based on the superiority of the white man and European civilization, and to identify the historical background of colonial french settlement project in Algeria, which is based on a study in the depth of the regions western colonial past, by highlighting its first historical origins knowledge of the western human races, that were established by it are perhaps the most important of them : The Romans, Wendall, Byzantines, Spanish, the various scientific studies they wrote, on which the french relied in preparing the ground for their settlement in Algeria, wether it is related to the geographical aspect, economic, social, let alone the intellectual debates that the french elite have presented, and research has reached the point of defining the most suitable areas for french settlement in Algeria.

keywords: French settlement phenomenon ; Algeria ; Historical background ; Western ideology ; Romans.

الملخص:

نعالج ضمن هذا المقال العلمي الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر، من خلال تحديد مفهومها كمصطلح تاريخي بإبراز الدلالة الحقيقية لها، بإعتبارها حقيقة إيديولوجية غربية ذات أبعاد إقتصادية،

إجتماعية وثقافية، تمتدّ جذورها إلى عهد الكشوفات الجغرافية، قائمة على أسس عنصرية تنطلق من تفوّق الرجل الأبيض والحضارة الأوروبية، والتعرّف على الخلفية التاريخية التي إرتكزت عليها فرنسا الإستعمارية لتجسيد مشروعها الإستيطاني بالجزائر، وذلك بالبحث في عمق الماضي الإستعماري الغربي بالمنطقة، بإبراز أصولها الأولى ومعرفة الأجناس البشرية الغربية التي توطّنت بها، لعلّ أهمّها: الرومان، الوندال، البيزنطيين، الإسبان، ومختلف الدراسات العلمية التي دوّنوها، وإعتمد عليها الفرنسيون في تهيئة الأرضية لإستيطانهم بالجزائر، سواءا ما تعلّق منها بالجانب الجغرافي، الإقتصادي، الإجتماعي، إضافة إلى النقاشات الفكرية التي قدّمتها الفئة النخبوية الفرنسية، والتي وصل بها البحث إلى غاية التحديد الفلكي للمناطق الأصلح للإستيطان الفرنسي بالجزائر.

الكلمات المفتاحية: الظاهرة الإستيطانية الفرنسية؛ الجزائر؛ الخلفية التاريخية؛ إيديولوجية غربية؛ الرومان.

مقدمة:

لعلّ أهمّ سمات القرنين الماضيين هو الإنتشار الواسع لظاهرة الإستعمار الإستيطاني في أغلب مناطق العالم الثالث، يرجع ذلك إلى بروز مرجعية أساسية ذات أبعاد عسكرية، سياسية، إقتصادية، ثقافية وجيو إستراتيجية لدى الدول الرأسمالية الكبرى، محورها الأساسي هو التوسّع وإحتواء الأرض، إبادة السكان الأصليين، طمس المقوّمات الشخصية "الدين، اللغة"، نهب الثروات والخيرات.

وذلك عن طريق سياسات مدروسة، تدعّمها نظريات فكرية وعقائدية لتبرير عمليات الهيمنة وتكريس المرجعية الإستيطانية، مثلما أقدمت عليه فرنسا في الجزائر.

وعليه: ما هي الخلفيات الرئيسية للظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر؟.

للإجابة عن هاته الإشكالية: طرحنا الفرضيات التالية:

بدءا بالتعريف بالظاهرة الإستيطانية الفرنسية، بإعتبارها حقيقة إيديولوجية ذات أبعاد إقتصادية، إجتماعية وثقافية.

أمّا العنصر الثاني فقد تطرّقنا فيه إلى خلفيات الإستيطان الفرنسي بالجزائر، من خلال البحث في عمق الماضي الإستعماري الغربي بها، والأسس المعتمدة في تجسيد الحركة الإستيطانية الفرنسية.

الأمر الذي إستلزم منا البحث في الظاهرة الإستيطانية الفرنسية وكشف دلالتها الحقيقية بتفسير خلفياتها تفسيرا موضوعيا، من خلال إعتماد مخطط عام لبحثنا هو كالتالي: مقدمة ثمّ تعريف الظاهرة الإستيطانية، أمّا العنصر الثاني متعلّق بخلفيات الإستيطان الفرنسي للجزائر، خاتمة.

تعريف الظاهرة الإستيطانية :

الإستيطان من أقدم أشكال الإستعمار؛ إذ تتوافر في هاته المستعمرات نسب كبيرة من المستعمرين بسبب الهجرة من البلد الأمّ إلى الأقاليم الخاضعة لها، لغرض إستغلال ثرواتها والإقامة بها.

لذلك نجد أنّ الإستيطان الأوروبي قام على تشجيع الهجرة والتي هي ظاهرة بشرية تاريخية، مرتبطة بظروف سياسية، إجتماعية وديمغرافية (نبهان يحي محمد، 2008: 23).

تعتبر سياسة الإستيطان في مجالها الإقتصادي، الإنسان نفسه سوقا ينبغي أن يسخّر الإنسان للعمل لصالح المستعمر، من خلال العمل الشاق وبأجر زهيد، حتى يظلّ هذا الإنسان منتجا، يجب أن يسلب من كلّ مقوّماته الفكرية والإنسانية، كما يسلب العبد من حريته وإنسانيته، حتى يظلّ طابعه الأساسي هو الخضوع والعمل (عباس فرحات، 2005: 15).

فالإستيطان لغة: هو إتخاذ الأرض موطنا، فيقال أوطنت بالأرض؛ أي إتخذتها موطنا.

أمّا إصطلاحا: فهو عملية إجتماعية، إقتصادية، تهاجر فيها جماعة بشرية من أرضها إلى أرض أخرى لإقامة مجتمعات بشرية.

كما عرف على أنّه إنتقال مجموعة بشرية من مكان إلى آخر، نتيجة لثورة صناعية إجتاحت أوروبا، يعتبر من الأساليب الإستعمارية التي تعتمد على توطين أكبر عدد ممكن من الفرنسيين والأوروبيين بالجزائر، لإخضاعها والسيطرة عليها (حسين محمد، 1968: 80).

الإستيطان حسب المدرسة الفرنسية، هو إمتلاك الأراضي والثروات، كونها لا تستغلّ بطريقة تحقّق منفعة كبيرة، وتظهِر المستوطن على أنّه مستثمِر يسعى إلى تحقيق تلك المنفعة، فقد جاء إمّا ليعمّر تلك المناطق أو ليكون وسيطا بين الأهالي المزارعين والأسواق العالمية، وتعدّد نشاطاته في القطاعات الإقتصادية الثلاث.

لا تعطيه صفة الإستيطان ولا يحمل صفة المعمّر أو المستوطن إلاّ عندما يتحوّل إلى أداة لتحقيق السياسة الإستعمارية، ويصبح شريكا في إدارة المستوطنة (سعيداني سحنون، 2008: 54).

فالإستعمار الإستيطاني إجتماعي، إقتصادي و ثقافي، قائم على أساس يخالف النظرية المعروفة في علم السياسة، والقائلة أنّ الدولة تقوم على أساس وجود إقليم، شعب، نظام حكم ومجال سيادة.

بينما يذهب الإستعمار إلى إعتبار أنّ أساس الدولة، هو أن تحدِث قوّة سياسية، نظام حكم ومجال سيادة ما على هذا الإقليم وعلى حساب هذا الشعب.

الأمر الذي يؤدّي إلى ظهور نظام سياسي جديد، يتطوّر قهرا ووفقا لرغبة المستوطنين، وليس وفق التطوّر الطبيعي والديمغرافي للمواطنين الأصليين (عميراوي أحميدة، 2007: 45).

إنّ الظاهرة الإستيطانية حسب المؤرّخ الفرنسي أوجان بوري Eugène Buret، حقيقة إيديولوجية ذات أبعاد إقتصادية، إجتماعية وثقافية؛ إذ يقول ضمن هذا الصدد: " كلّ خطوة كنّا نخطوها في

حملتنا على الجزائر، كنّا نعثر فيها على شهادات تدلّنا على الإزدهار الذي شهدته الزراعة في الجزائر قديما، وحيث ما حللنا سواءا في الساحل أو في الداخل، إلاّ وجدنا آثارا للرومان في كلّ من وادي الشلف، وسهل مينا و مجانة، يبرهن من خلال خصوبته وبشكل قطعي أنّ الجزائر كانت ولمدّة قرون مستودعا للحبوب التي كانت تمدّ الإمبراطورية الرومانية ...".

ينهي قوله بأنّه: " قد أعيد إكتشاف إفريقيا الرومانية ولم ينقصنا مستقبلا سوى إحتلالها و تعميرها" (Buret Eugène, 1842 : 13)

ما نستنتجه من قوله أنّ الفكر الإستيطاني الفرنسي، لا يمكن أن يتجسّد على أرض الواقع إلاّ بإحتلال أراضيها الزراعية، وتثبيت مستوطنين بها.

وبالتالي عدم تحقيق هذا الشرط، يظلّ وجود فرنسا بالجزائر مؤقّتا؛ أي أنّ عدم إمتلاك فرنسا للأراضي الزراعية والإستقرار بها، يعتبر خطرا يهدّد وجودها بالجزائر.

على هذا الأساس يبقى إمتلاك الأراضي الزراعية، هو الضمان الوحيد للظاهرة الإستيطانية، ومن هنا فلا معنى للإستيطان بدون إمتلاك للأرض، ولا إستيطان أيضا بدون سياسة الإدماج الرامية إلى محو المقوّمات الشخصية للمجتمع الجزائري.

الإستيطان جزء لا يتجزّأ من الإستعمار؛ أي أنّه ممكّن لهاته الظاهرة، فهو يمثِّل وسيلة أساسية لحلّ المشاكل التي تواجهها الدول، جرّاء عدم تمكّنها من تلبية إحتياجات المجتمع الأوروبي، فهو تعبير عن قوّة توسّعية لشعب ما، وإمتداده وتصاعده (بوزيدة نورة، 2007: 167).

تميّزت الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر، بإعتماد نظام إحلالي قائم على تغيير الصفة الوطنية للمجتمع المحلّي، وبناء شخصية جديدة تتّفق وهويّة الدولة المحتلّة، وطبيعة الأفراد الجدد ومصالحهم، وخلق مجتمع إستيطاني يحقّق أهداف الدولة المستعمِرة ومصالحها.

كما مثّل هذا النظام حالة مناقضة للهويّة الوطنية الجزائرية، والشخصية العربية الإسلامية، وهو ما عرِف بفرنسة الجزائر.
سعيا منها لتحويلها إلى مستوطنة فرنسية، من خلال إخلاء الأرض من أصحابها الشرعيّين وإضعاف إرتباطهم بهويّتهم السياسية والحضارية، وربط الجزائر بالحضارة الغربية، والعمل على إكسابها خصائص هاته الهويّة الجديدة.
لتحقيق هذا الغرض عملت فرنسا على:
* إستقطاب أكبر عدد ممكن من المهاجرين الفرنسيين والأوروبيين وتوطينهم بالجزائر، والإستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض لتعزيز النموّ الديمغرافي للمجتمع الإستيطاني.
* إنتهاج سياسة التجنيس وتحويل المواطنين الجزائريين إلى فرنسيين، ومنحهم الجنسية الفرنسية، بهدف زيادة العنصر الفرنسي، والإخلال بتوازن المجتمع المحلّي.
* بناء القرى الإستيطانية لغرض توطين المعمّرين بها، والسيطرة على الموارد الإقتصادية المحلية (الحاج محمد صالح، 1997: 10).

كما أشار الدكتور حسين غازي في: أنّ الإستيطان هو أن يقوم غرباء بإستيطان أرض لا تخصّهم بتأييد من دول أوروبا الإستعمارية، فحصل المستوطنون على الأرض وأبادوا وعزلوا سكانها الأصليين، وتنبثق الطبيعة العنصرية للظاهرة الإستيطانية من إيمان المستوطنين بتفوّقهم الحضاري، وإحتقارهم للسكان الأصليين، وشعورهم بالتفوّق عليهم (غازي حسين، 2003: 13).
فالمستوطنون غرباء أتوا من وراء البحار وإستقرّوا في أراض ليست لهم، هدفهم زيادة الهجرة، وزيادة الأراضي المغتصبة، وكسر إرادة السكان الأصليين بالقوّة و الإرهاب، والإبادة والعنصرية.

تتجلّى عنصرية المستوطنين وإغراقهم في التمييز العنصري والإبادة، بإستخفافهم بحقوق وحياة وكرامة السكان الأصليين؛ إذ صدرت ضمن هذا السياق جملة من المؤلفات، لعلّ أهمّها: سلسلة لاكاغايوس La Cagayous، والتي ظلّت تصدرة ولمدّة ثلاث عقود تقريبا من 1891م إلى غاية 1920م، في إصدارات أسبوعية من ستة عشر صفحة.

وكانت تستعمل اللهجة الشعبية للمستوطنين، والتي يطلق عليها باتاويت Pataoite، والتي كانت تصوّر دائما نظرية تفوّق الرجل الأبيض، وأنّ الأوروبي دائما ينتصر ويؤدّب العربي.
الشيء الذي جعلهم دائما يردّدون ويتغنّون: « Nous sommes tous des cagayous »
هذا معناه أنّنا كلّنا أبطال نؤدِّب وننتصر دائما، ونسيطر على العربي، بالإضافة إلى إصدارات أسبوعية أخرى، مثل: " بابا لويت Papa Loutte"، ولوكوشون، لاكرافاش، لوكوكو ألرجريان.
تتفق كلّها في كونها جاءت في طابع تهكّمي، إحتقاري إستهزائي، تجاه السكان الجزائريين (بوعبد الله محمد، 2016: 225) في إرتكاب المجازر حدث طبيعي في سلوكهم وممارساتهم (غازي حسين، 2003: 14).
كما يرجِع بعض المؤرّخين الظاهرة الإستعمارية الإستيطانية، إلى عهد الكشوفات الجغرافية؛ إذ يستمدّ الإستعمار الإستيطاني وجوده من مرحلة التوسّع الإستعماري التقليدي التي أعقبت الكشوفت الجغرافية، فقام على أسس عنصرية، تنطلق من تفوّق الحضارة الأوروبية والرجل الأبيض.
إعتبر العنصريّون الأوروبيّون من أمثال اللورد آرثر بلفور: أنّ الإستعمار الإستيطاني هو حقّ للرجل الأبيض في نقل الحضارة للشعوب المتخلّفة، وذلك بإحتلال بلدانهم ولو كان ثمن ذلك القضاء على السكان الأصليين (حماد مجدي، 1981: 45).

خلفيات الإستيطان الفرنسي للجزائر:

إنّ تنظيم الإدارة الفرنسية للحركة الإستيطانية بالجزائر، إستند إلى أسس كثيرة ومتنوّعة، منها: تطوير عملية الهجرة والإستيطان في محاولة لإيجاد مراكز قوى يمكن الإعتماد عليها بصورة ثابتة، لتحقيق هدف مزدوج يتمثّل في تأمين النهب الإستعماري والتوسّع فيه، وفي تخفيف نفقاته بتحميل المستوطنين قسما من أعباء الدفاع (عميراوي أحميدة، 2007: 72).
إنّ الإستعمار الإستيطاني الفرنسي يعتمد على التخطيط الإستراتيجي والتدرّج السياسي المرحلي في تحقيق مكاسب مهمّة، تتمثّل في إقامة كيان إجتماعي غريب بالجزائر، وبناء نظام سياسي

جديد ومتميّز، ثمّ ربط الشعب الجزائري المستعمر حضاريا و ثقافيا، بالشعب المستعمِر.

لتعزيز هاته المكاسب والحفاظ عليها لا بدّ من الإستفادة من الإنتصارات التي تحرزها القوات العسكرية لدعم مبدأ الإستعمار: "تفوّق الرجل الأوروبي الأبيض"، وتعزيز الهيبة الإستعمارية للقوّة الفرنسية التي لا تقهر.

فتشجيع الهجرة الإستيطانية وتفتيت القاعدة الديمغرافية المحلية، يؤدّي بالضرورة إلى بناء قاعدة ديمغرافية جديدة، لمناصرة القوّة العسكرية الفرنسية، التي تؤدّي فيما بعد إلى تشكيل دولة إستيطانية، و هي الدولة التي تتّخذ من الإستيطان الأوروبي منطلقا فكريا، ومحدِّدا إستراتيجيا، ومجالا معرفيا لتمرير المشاريع الإقتصادية.

إنّ الحركة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر، وقبل إقدامها على عملية التثبيت النهائي للمجتمعات الغربية بها، عمدت أوّلا إلى دراسة طبيعة البلاد الجزائرية، والتعرّف على أوضاعها الإقتصادية والإجتماعية.

فأصول الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر، تمتدّ جذورها إلى عمق الماضي الإستعماري الغربي الذي عرفته المنطقة "الإستعمار الروماني والإسباني"، فمع قدوم الفينيقيين والقرطاجيين، شهدت البلاد نهضة زراعية، وحظيت زراعة الكروم والزيتون برعاية خاصّة إلى جانب منتجات أخرى كالتين، اللوز والرمان (بن داهة عدة، 2008: 100).

إذ تعرّض ماغون في مؤلّفه: "كتاب الزراعة" Ouvrage « D'agronomie » لممارسة الفلاحين عمليات التطعيم وتقليم الأشجار وتنويع المحاصيل الزراعية وفق نوعية التربة و المناخ.

ومن ضمن المناطق التي حظيت بإهتمام الرومان في الجهة الغربية من الجزائر، نذكر: سهل سيدي بلعباس، هضاب تيارت، والمناطق المحصورة بين عين تموشنت وسيدي بلعباس.

خلال العهد الروماني شهد إنتاج الحبوب والزيتون تطوّرا ملحوظا، بينما تراجع إنتاج الكروم.

كما عرفت المنطقة في عهد الإستعمار الوندالي لها: إذ شهد القطاع الزراعي في عهده تقهقرا وتراجعا كبيرا، لكن خلال عهد الإستعمار البيزنطي، إستعاد النشاط الزراعي بهاءه، من خلال إستصلاح قنوات الريّ التي تعرّضت للتخريب من قبل الوندال.

فأصبحت الجزائر تحقّق إنتاجا مهمّا من محصول القمح، إبتداءا من القرن العشر ميلادي، ناهيك عن قدرتهم على إنتاج جملة من المحاصيل النقدية ذات الطابع التجاري، كزراعة القطن، قصب السكر، الكتان، بالإضافة إلى محاصيل أخرى كالتوت.

مع بداية القرن 16 ميلادي وبالضبط سنة 1512م، أبدى الكاردينال خيمينيس Khimines، رغبة كبيرة في خلق مستعمرة زراعية إستيطانية إسبانية بضواحي وهران، حينما تعرّض القطاع الوهراني للإحتلال الإسباني.

ترجم ذلك دعوته الصريحة من الحكومة الإسبانية، أن تساعد الإسبان الراغبين في الإستيطان بإقليم وهران لتجسيد الغزو الحقيقي والفعلي من قبل الكولون، فتمنحهم جملة من الإمتيازات، وتقوم بعمليات توزيع الأراضي الخصبة عليهم، فيزرعونها ويتّخذون منها موطن إستقرار بها.

في مقابل ذلك ودرءا للتهديدات المتوقّعة في شكل مقاومات تناهض الوجود الإسباني من قبل الجزائريين، إقترح على حكومته بناء مؤسسات عسكرية زراعية، شبيهة بتلك الإمتيازات الأرضية، التي تمّ منحها لفرسان جزيرة رودس، ممّن أسنِدت لهم ضمان حرّية الملاحة بحوض البحر الأبيض المتوسّط، وغزو كامل إفريقيا ومدّ نفوذ الإسبان إليها (Emille Froelicher, 1903 : 33)

هذا ما يبرز لنا التقارب الكبير في نظرة القسّيس خيمينيس Khiminesمع نظرة الجنرال بيجو Bugeaud في تجسيد السياسة الإستيطانية بالجزائر، والتي تقوم على بناء قرى إستيطانية محصّنة للكولون العسكريين، ممّن تمّ تسريحهم أو أنهوا خدمتهم العسكرية.

وبالتالي خلق مستوطنات زراعية عسكرية وتوطين مستوطنين محاربين متعوّدين على العمل في الحقول الزراعية، مع توظيفهم للسلاح حينما تتعرّض مستوطناتهم لهجومات القبائل الجزائرية؛ أي

أنّ الجنرال بيجو Bugeaud إستلهم من النموذج الروماني سياسته، من خلق المستعمرات الزراعية العسكرية، لتثبيت الفكر الإستيطاني الفرنسي بالجزائر.

ضف إلى ذلك ما أقدم عليه أوغست تيباريوس August Tibarius من عمليات التوزيع للأراضي الجزائرية على النازحين من إيطاليا، ممّن تعرّضوا للإفلاس جرّاء الأزمة الفلاحية التي عرفوها.

لذلك نجد أنّ الإحتلال الفرنسي بالجزائر، سعى منذ بداياته الأولى إلى محاولة إحكام قبضته على الأراضي الزراعية بعد نجاحه في عمليات المصادرة من أصحابها الشرعيين بشتّى الطرق والوسائل، في مقابل ذلك منحها للمهاجرين الأوروبيين نحو الجزائر وتوطينهم بها.

نظير إدراك إدارة الإحتلال الفرنسي أنّ الأرض هي العنصر الرئيسي لتجسيد المشروع الإستيطاني، فتمّ منحها للكولون، زيادة على ذلك جملة من الإغراءات والإمتيازات المقدّمة لهم، كي يرتبطون أشدّ الإرتباط بها، ويجعلون منها مصدرا أساسيا لتحصيل الثروة.

كما أن الكاردينال لافيجري نهل نهج القسّيس خيمينيس؛ إذ أنشأ بالجزائر جمعية دينية مسلّحة "رهبانية عسكرية"، تعمل على الإحتلال المنهجي للأقاليم الصحراوية (جوليان أندري شارل، 1969: 216).

إنّ حركة الإستيطان الفرنسي للجزائر في بدايتها رافقتها مناقشات فكرية وظهور نظريات متعدّدة حول المناطق الأصلح للإستيطان الأوروبي، فقد قام الطبيبان ريكو Ricoux و بورديبه Bordier، بدراسة جغرافية فلكية حول خطوط الحرارة المتساوية ونصحا الأوروبيين بالإستقرار شمال دائرة عرض 25°، وهو الخطّ الذي يمرّ بمدينة معسكر غربا إلى باتنة ثمّ عين البيضاء شرقا، فكان ذلك يعني الإستقرار بالمناطق والسهول الشمالية (السويدي محمد، 1972: 74).

لذلك لا غرابة أن نجد فيما بعد نشاط الحركة الإستيطانية والجهود السياسية والدبلوماسية، تحت غطاءات سياسية متعدّدة وممارسات عسكرية، تتّخذ من المدن الشمالية والساحلية على وجه الخصوص، إطارا نظاميا وجيو إستراتيجيا، لفرض إيديولوجية التوسّع والتوطين، والنهب والإستيلاب والإستغلال، من أجل إحكام السيطرة الكلّية على

منابع ومنافذ الثروة الإقتصادية، بشكل هيكلي تنظيمي، مبحوث ومدروس سلفا، من قبل دوائر ومراكز القرار الفرنسية.

كما ساهمت التيارات الفكرية، مثل: المسيحية الكاثوليكية والسانسيمونية، في عملية الإستعمار الإستيطاني الفرنسي.

دشّن جول فيري Jules Ferry التاريخ الفعلي لبروز النظرية الفرنسية للإستعمار والتي تعدّ بعدا شموليا في مرجعية المنظومة الإستيطانية الفرنسية، والتي أقامها على أساس ثلاثة منطلقات مركزية:

إقتناعه أوّلا أنّ الإستعمار قانون حتمي نابع من درجة التطوّر، الذي بلغته الإقتصاديات الأوروبية برمّتها.

وإعتقاده ثانيا أنّ من واجب و حقّ الدولة المتحضِّرة أن تساعد نظيراتها المتخلّفة على التمدّن، وفي مستوى ثالث إنطلاقه بدافع وطني نظري، من الإيمان بضرورة تعزيز مكانة فرنسا وعظمتها بالعالم (مالكي أحمد، 1994: 128).

فالجزائر في نظر الساسة الفرنسيين تعدّ إمتدادا طبيعيّا للأراضي الفرنسية وجزء لا يتجزّأ من سيادتها، أقرّه الدستور الصادر في أعقاب ثورة 1848م، وبصرف النظر عن حيثيات مواد الدستور، وإنعكاساته على الممارسة السياسية داخليا وخارجيا.

فإنّ الموجات الكثيفة من المستوطنين الذين تعرّضت لهم الجزائر، صاحبتها عمليات إقتلاع وتهميش وتشريد للسكان الأصليين، وعمليات إبادة حضارية وثقافية للمؤسسات المحلية (عميراوي أحميدة، 2007: 76).

إنّ الإستيطان الفرنسي للجزائر، مثّل أكبر المخاطر التي هدّدت كيان الشخصية الجزائرية، فقد أصبح المستوطنون ينظرون إلى الجزائر، بعد مرور عدّة أجيال على أنّها وطنهم الأصلي.

زاد من تأكيد هذا الإتجاه إنتماؤهم إلى جنسيات مختلفة، فسمّوا أنفسهم بالجزائريين، وأطلقوا على أبناء الجزائر وصف "المسلمين"، أو "الأهالي"، أو "المسلمين الفرنسيين"، مغزى هاته التسميات يكمن في أنّه ليس للجزائر والجزائريين كيان مستقلّ ولا شخصية متميّزة (السويدي محمد، 1972: 39).

إنّ المواقف والإتجاهات التي تؤسِّس وتؤطِّر للإستيطان، قامت على مبدأ التوسّع والإستغلال للأرض، عبر أجهزة ومؤسسات ودوائر عسكرية وسياسية، ضمن شبكة تشريعية وقانونية، وبوسائل وأدوات تعليمية، إعلامية، ثقافية، هو المحدّد الرئيسي للسياسة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر.

جسّد ذلك كخطاب مؤسِّس حينما أعلن الجنرال بيجو Bugeaud سنة 1841م بقوله: "يجب أن يقيم المستوطنون الفرنسيون حيثما وجدت المياه الغزيرة والأراضي الخصبة بدون أيّ إهتمام بحقّ ملكية الأرض، التي يجب أن توزّع على المستعمرين المستوطنين، وأن تصبح هاته الأراضي الخصبة من أملاكهم الشخصية" (طلاس مصطفى، 1984: 65).

ترجمتها جملة من التصريحات الرسمية الدّاعمة لموقف الجنرال بيجو Bugeaud، لعلّ أهمّها: "كان الجميع يريدون الشراء، دون أن يريدوا معرفة ما إن كان لهؤلاء الحقّ في الملكية لا سيما بعد ضياع العديد من السجلات التي توثّق عقود البيع و الشراء، في ظلّ الصراع العسكري" (عبود علي، 2014: 44).

"لا بدّ لي من القول أنّ وحشية تواصلنا، ستخرِج كلّ من يعيشون بالجزائر العاصمة إلى خارجها، وقد إشترى الأوروبيون منذ البدايات الأولى للغزو كلّ المنازل المعروضة للبيع".

"... بمجرّد فرض سيطرتنا العسكرية على مدينة الجزائر العاصمة خلال السنوات الأولى من الإحتلال تمّ تحويل كلّ الحقول المزروعة والأراضي إلى ملكية أوروبية" (Buret Eugène, 1842 : 78)

إنّ الخلفية التاريخية لهذا الموقف المدعّم للسياسة الإستعمارية في شقّها الإستيطاني، ينسجم ويتماشى مع المرسوم الملكي المؤرّخ في 12 ديسمبر 1833م، الذي أعدّه تقرير اللجنة العليا والذي صيغ في فقرة جاء فيها: " لكي تحتفظ فرنسا بحقّها في السيادة على جميع الأراضي الجزائرية من الملائم أن تقتصر مؤقتا على الإحتلال العسكري لمدينة الجزائر، عنابة، بجاية، وهران، وإقامة تحصينات للدفاع عنهما".

لذلك لا غرابة أن يكون الجنرال بيجو Bugeaud أوّل منظّر لمقولة أساسية وهي أنّ: "الإستيطان دعامة الإحتلال العسكري"، وهو الذي فرض مبدأ الإستعمار الزراعي الإستيطاني، تحت رعاية الجيش (عميراوي أحميدة، 2007: 79).

كما ذهب إلى القول أنّ الغزو يصبح عقيما من دون الإستعمار، الذي يجب أن يكون محتدما وعنيفا، وذلك قبل أن يصبح إستعمارا رسميّا ومقنّنا بجملة من المراسيم والأنظمة ليعزّز أخيرا بالمبادرات الخاصّة القاضية بضرورة العمل على تشجيع تدفّق رؤوس الأموال للأشخاص والشركات (مالكي أحمد، 1994: 135).

هكذا نجد أنّ غزو الأرض وغزو الأفكار مثّلا هدفين رئيسيين أوّليين في الخلفية الإستيطانية الفرنسية للجزائر؛ إذ قام العسكريون بتنفيذ الهدف الأوّل وأسنِد تنفيذ الهدف الثاني لرجال الدين (حلوش عبد القادر، 1999: 66).

الخاتمة:

ختاما نخلص إلى القول من خلال ما تطرّقنا إليه في دراستنا العلمية، إلى جملة من النتائج هي كالتالي:

- الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر، إيديولوجية غربية تمتدّ جذورها إلى عهد الكشوفات الجغرافية، قائمة على أسس عنصرية تنطلق من تفوّق الحضارة الأوروبية والرجل الأبيض، تعتبر الأرض الزراعية بمثابة الضمان الوحيد لتجسيد المشروع الإستيطاني، عن طريق عمليات المصادرة CONFISCATION، يليها إستقطاب أكبر عدد ممكن من المهاجرين الفرنسيين والأوروبيين وتوطينهم بالجزائر، إنتهاج سياسة التجنيس بتحويل المواطنين الجزائريين إلى فرنسيين ومنحهم الجنسية الفرنسية، بهدف زيادة العنصر الفرنسي والإخلال بتوازن المجتمع المحلّي من خلال عمليات الإبادة للسكان الأصليين.

كلّ هذا يندرج ضمن نظام إحلالي يقوم على تغيير الصفة الوطنية للمجتمع المحلّي، وبناء شخصية جديدة تتفق وهويّة الدولة المحتلّة وطبيعة الأفراد الجدد "الكولون" ومصالحهم، وهو ما عرف بفرنسة

الجزائر، مع بناء القرى الإستيطانية لغرض تثبيت المعمّرين بها، والسيطرة على الموارد الإقتصادية المحلّية.

- تعود خلفيات وأبعاد الإستيطان الفرنسي للجزائر، إلى عهد التاريخ الإستعماري الغربي القديم للمنطقة، ممثّلا في: الرومان، الوندال، البيزنطيين ثمّ الإسبان، وإستفادتهم من تجاربهم من خلال تنظيرهم المسبق للفكر الإستيطاني بالجزائر، ضف إلى ذلك جملة من الدراسات العلمية المقدّمة من طرف نخبة المجتمع الفرنسي، لتحديد المناطق الأصلح للإستيطان بالجزائر.

ولعلّ أهمّ الإقتراحات ذات الصلة بموضوع بحثنا، فيمكن أن تكون هاته الدراسة العلمية بمثابة الأساس لبحوث مونوغرافية مستقبلية، متعلّقة بالحركة الإستيطانية الفرنسية بكلّ منطقة محلّية من مناطق الجزائر، قصد إثراء المدرسة التاريخية الجزائرية برصيد علمي أدقّ وإستكمال مرحلة بنائها المنشود.

المراجع:

-بوزيدة نورة، (2007). **الإستعمار و الإبادة**، ط1. الجزائر: دار الرائد للكتاب.
-جوليان أندري شارل، (1969). **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ط1. تونس: الدار التونسية للنشر.
-الحاج محمد صالح، (1997). **الإستيطان الفرنسي في الجزائر 1919-1939.** رسالة ماجيستير غير منشورة لنيل شهادة ماجيستير في (التاريخ الحديث والمعاصر)، جامعة اليرموك، الأردن.
-حلوش عبد القادر، (1999). **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر**، ط1. الجزائر: دار الأمة.
-حماد مجدي، (1981). **النظام السياسي الإستيطاني دراسة مقارنة إسرائيل وجنوب إفريقيا**، ط1. لبنان: دار الوحدة.
-بن داهة عدة، (2008). **الإستيطان و الصراع حول ملكية الأرض إبان الإحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962**، ط1. الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين.
-سعيداني سحنون، (2008). **الإستيطان في منطقة الونشريس والسرسو وردّ فعل المقاومة الجزائرية 1870-1930.** رسالة ماجيستير غير منشورة لنيل شهادة ماجيستير في (التاريخ المعاصر)، جامعة الجزائر2، الجزائر.
-السويدي محمد، (1972). **مقدّمة في دراسة المجتمع الجزائري**، ط1. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
-طلاس مصطفى، (1984). **الثورة الجزائرية**، ط1. سوريا: طلاس للدراسات والترجمة و النشر.

-عباس فرحات، (2005). **ليل الإستعمار**، ط1. الجزائر: دار القصبة للنشر.
-بوعبد الله محمد، (2016). **« في سوسيولوجيا الشخصية الكولونيالية كمنغص للعيش المشترك دراسة سوسيو نفسية في بناء الذهنية و الشخصية الكولونيالية بالجزائر نموذجا»**. مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية، جامعة الجزائر2، المجلد: 4، العدد: 7، 2016، ص.ص 222-238.
-عبود علي، (2014). **الإستيطان و الصراع حول ملكية الأرض 1830-1899 القطاع الوهراني نموذجا.** رسالة ماجيستير غير منشورة لنيل شهادة ماجيستير في (التاريخ المعاصر)، جامعة وهران، الجزائر.
-عميراوي أحميدة، (2007). **آثار السياسة الإستعمارية والإستيطانية في المجتمع الجزائري 1830-1954**، ط1. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أوّل نوفمبر 1954.
-غازي حسين، (2003). **الإستيطان اليهودي في فلسطين من الإستعمار إلى الأمبريالية**، ط1. سوريا: إتحاد الكتاب العرب.
-مالكي أحمد، (1994). **الحركات الوطنية و الإستعمار في المغرب العربي**، ط1. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
-نبهان محمد يحي، (2008). **معجم مصطلحات التاريخ**، ط1. الأردن: دار يافا للنشر و التوزيع.
-Buret Eugène. (1842). Question d'Afrique. Paris : Imrimerie D'hippolyte Tilliard.
-Emille Froelicher. (1903). Trois Colonisateurs « Bugeaud, Faidherbe, Gallieni ». Paris : Henri Charles Lavauzelle Editeur Militaire.

للإحالة على هذا المقال:

-وليد صفراوي، (2020)، **«خلفيات الظاهرة الإستيطانية الفرنسية بالجزائر»** . **المواقف**، المجلد: 18، العدد: 01، أوت 2022، ص. ص 823- 837.